الفصل الثالث

١. السَّماء والأرض.
٢. ورأى اللّٰه ذلك أنَّهُ حَسَنٌ.
٣. الرجل والمرأة.

١ . السَّماء والأرض

يُدعى أوَّل سِفرٍ في الكتاب المقدَّس بسفر التكوين. وكلمة «تكوين» تعني البدايات:

«فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. وَقَالَ اللهُ: لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ. وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلاً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا» (تكوين ١: ١-٥)

منَ العَدَم

«فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ ...». أن تخلق شيئاً ما يعني أن تُبدي قوَّة عظيمة. وقد يصعُب علينا أحياناً أن نُصدِّق أنَّ الله خَلَق كل شيءٍ من العَدَم! صحيحٌ أننا - نحن البشر – نقوم بابتكار الأشياء أحياناً؛ لكننا نستخدم في ذلك مواد موجودة من قَبل. فنحن نرسم اللَّوحات باستخدام الألوان الزيتية أو الشمعية، ونبني البيوت من الطوب والإسمنت والحديد. لكنَّ الله لا يفعل مثلنا؛ بل هو يخلق الأشياء من لا شيء .. أي من العَدَم!

كُليُّ القُدرة

إنَّ الله عظيمٌ حقاً. فما من شكٍّ أنَّ مثل هذا الخلق الشموليَّ بدون مواد، ولا مُخطَّطات، ولا ورشة عمل، ولا أدوات يتطلَّب قُدرات تفوق تخيُّلنا أو تصوُّرنا. ويُخبرنا الكتاب المقدَّس أنَّ عمليَّة الخلق تَمَّت لأنَّ الله قادر على كل شيء. فقُدرة الله لا تعرف حدوداً.

«عَظِيمٌ هُوَ رَبُّنَا، وَعَظِيمُ الْقُوَّةِ ...» (المزمور ١٤٧: ٥)

أنَّ الله كُليُّ القُدرة وعظيم القوة!

كُليُّ المَعرفة

إنَّ الله عظيم بكل تأكيد! فهو ليس كُليُّ القدرة فحسب، بل وكُليّ المعرفة أيضاً!

«عَظِيمٌ هُوَ رَبُّنَا، ... لِفَهْمِهِ لاَ إِحْصَاءَ» (المزمور ١٤٧: ٥)

فالله يعرف كل شيءٍ دون استثناء. وهو لا يحتاج لاستشارة أحد المُهندسين المعماريين أو أحد الخُبراء للحصول على مزيد من المعلومات. فمعرفة الله ليس لها حُدود. وحينما قام الله بعمليَّة الخَلق فهو لم يتبع مُخطَّطاً وضعه شخصٌ ما!

كُليُّ الحَضور

حينما يقوم الإنسان بصُنع أو تشكيل شيءٍ ما فإنه بحاجة لمكان يعمل فيه مثل ورشة عمل أو مَشْغَل. أمَّا الله فلم يكُن بحاجة لورشة عمل لكي يتمكَّن من خَلق هذا العالم وما فيه لأنَّ الكتاب المقدَّس يقول لنا إنَّ الله موجودٌ في كُلِّ مكان وكُلِّ زمان.

«أَلَعَلِّي إِلهٌ مِنْ قَرِيب، يَقُولُ الرَّبُّ، وَلَسْتُ إِلهًا مِنْ بَعِيدٍ. إِذَا اخْتَبَأَ إِنْسَانٌ فِي أَمَاكِنَ مُسْتَتِرَةٍ أَفَمَا أَرَاهُ أَنَا، يَقُولُ الرَّبُّ؟ أَمَا أَمْلأُ أَنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، يَقُولُ الرَّبُّ؟» (إرميا ٢٣: ٢٣، ٢٤)

تُبرهن صفات الله الثلاث أنه كُليُّ القُدرة، وكُليُّ المعرفة، وكُليُّ الحُضور – مُنفردةً ومُجتمعةً – أنَّ الله عظيمٌ. فلا يُمكن خلق هذا العالم البالغ التعقيد الذي نعيش فيه إلاَّ عن

طريق عملية دمج كاملة بين هذه الصفات الثلاث.

«صَانِعُ الأَرْضِ بِقُوَّتِهِ، وَمُؤَسِّسُ الْمَسْكُونَةِ بِحِكْمَتِهِ، وبِفَهْمِهِ مَدَّ السَّمَاوَاتِ» (إرميا ٥١: ١٥)

ورغم أنَّ الملائكة تمتلك الكثير من القوَّة والذكاء، إلاَّ أنها لا تتمتَّع بأيٍّ من هذه الصفات. وماذا عَنَّا نحن البشر؟ نحن بعيدون كُلَّ البعد عن هذه القدرات الخارقة! فلكي نصنع شيئاً بسيطاً فإننا بحاجة للكثير من الجهود البشرية المُشتركة. فعلى سبيل المثال، لنفترض أننا نُريد أن نصنع كُرسياً معدنياً، فما الذي سيحدث؟ قبل كل شيءٍ، سوف نحتاج للمعدن الخام. لكن أين يمكننا أن نجد المعدن المُناسب لصنع مثل هذا الكرسي؟

إنَّ المعادن موجودة في الصخور. لكن من هو الشخص الذي يعرف نوعيَّة الصخور التي تحتوي على المعدن المطلوب؟ نحن بحاجة إلى عالم جيولوجي وإلى شخص خبير في التنقيب عن الحديد الخام. وعلى فرض أننا وجدنا النوع المناسب من الصخور، ما هي الخُطوة التالية؟ فما زالت الصخور موجودة في الأرض!

سوف نحتاج شخصاً يعرف كيف يصنع المُتفجرات، وسوف نحتاج لبعض معدَّات التعدين المطلوبة، وبعض عُمَّال المناجم ممَّن يمتلكون خبرةً كافيةً في استخراج الحديد الخام من باطن الأرض بطريقة آمنة. لكن حتَّى لو نجحنا في استخراج الحديد الخام فلن نكون قادرين على صُنع كُرسيٍّ منه! فيجب صهر الحديد الخام أوَّلاً؟ لكن هل يمكننا إضرام نارٍ حاميةٍ لدرجة تكفي لصهر الحديد الخام؟ بالطبع لا، فنحن بحاجة لشخصٍ يُتقن عمليَّة الصهر والسبك. لكن حتَّى لو عثرنا على الأشخاص المطلوبين لهذه المهمَّة، هل تدري ما الذي سيحصل؟

سوف يسكبون لنا كُتلة صلبة من الحديد. وفي هذه المرحلة، يمكننا أن نجلس على تلك الكُتلة الحديدية بعد أن يتم تبريدها! لكن إن أردنا أن نصنع منها كُرسيًّا، فنحن بحاجة لشخص يعرف كيفيَّة طَرق تلك الكُتلة وتحويلها إلى قطعة مُسطَّحة بالسَّماكة المطلوبة. وبعد ذلك، يجب علينا ثني الحديد وتثبيت أجزائه المُختلفة بواسطة اللِّحام.

وإن أردنا أن نَلْحِم تلك الأجزاء معاً فسوف نحتاج إلى شخصٍ يعرف شيئاً عن الكهرباء وكيفيَّة توليدها لكي نتمكَّن من تشغيل آلة اللِّحام!

وهكذا، فإنَّ عملية صُنع كرسي واحد هي عمليَّة مُعقدة للغاية رُغم أننا لم نتطرَّق بعد لعملية صُنع الدِّهان الخاص بالمعادن، ولا لكيفية إنتاج الألوان المُختلفة التي نرغب فيها.

وماذا عن أرجُل الكُرسي؟ هل ستكون من البلاستيك؟ أليس صحيحاً أنَّ مادة البلاستيك تُستخرج من المواد النفطيَّة؟ إذاً، سوف يتطلَّب الأمر أن نحفر بئراً لاستخراج النفط. والآن، ما هي الأشياء التي يتطلَّبُها حفر بئر نفط؟!

كُلَّ هذا لأننا فَكَّرنا في صُنع كُرسيٍّ معدنيٍّ واحد فقط! وهكذا، فلكي نصنع أبسط الأشياء فإننا بحاجة لمئات الأشخاص الذين يتمتَّعون بمهارات وقُدرات مُختلفة. فما من شخصٍ واحدٍ يعرف كل شيء!

وكما ترى يا صديقي، فما من أحَدٍ من البشر أو الملائكة يدنو ولو قليلاً من هذا الإله العظيم الذي يعرف كل شيء، والذي لديه القُدرة المُطلقة على خلق الأشياء من العَدَم، والذي يوجد في كل زمانٍ ومكان بحيث يستطيع أن يضع الأشياء التي يخلقها في المكان الذي يُريده! لهذا فهو إله فريد ولا مثيل له.

«آهِ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، هَا إِنَّكَ قَدْ صَنَعْتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقُوَّتِكَ الْعَظِيمَةِ، وَبِذِرَاعِكَ الْمَمْدُودَةِ. لاَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ شَيْءٌ» (إرميا ٣٢: ١٧)

وقالِ الله

لقد تَمَّ تدوين قصَّة الخلق المُدهشة هذه بصورة مُبسَّطة ودقيقة في الوقت نفسه. وتَرِد أكثر المعلومات إذهالاً في بضع كلمات فقط. فعلى سبيل المثال، فإنَّ الكتاب المقدَّس يُشير بطريقة عابرة فقط إلى الوسيلة التي استخدمها الله لإتمام عمليَّة الخَلق. فهو لم يستخدم يديه أو أية أدوات؛ بل إنه أمر الأشياء أن تكون فأصبحت موجودة!

«وَقَالَ اللهُ: 'لِيَكُنْ نُورٌ'...» (تكوين ١: ٣)

«... الْكَوْنَ كُلَّهُ قَدْ خَرَجَ إِلَى الْوُجُودِ بِكَلِمَةِ أَمْرٍ مِنَ اللهِ ...»

(عبرانيِّين ١١: ٣ - التفسيرية)

ونقول مَرَّةً أخرى إنَّ مثل هذه القدرة تفوق إدراكنا. فنحن لا نستطيع أن نستوعب أنه بإمكاننا أن نأمر الكُرسيَّ بالتواجُد فيُصبح موجوداً بالفعل. فإن كان مثل هذا العمل البسيط يفوق تصوُّرنا، فماذا عن عمليَّة خلق الكون! لكن ما الذي يُمكن للمرء أن يتوقَّعه من إله حيٍّ وعظيم؟ فحينما نُفكِّر في الأمر فسوف نجد أننا لا نتوقَّع منه قوَّةً أقل من هذه. وهذا هو ما يؤكِّده الكتاب المقدَّس:

«بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ، وَبِنَسَمَةِ فِيهِ كُلُّ جُنُودِهَا. ... لِتَخْشَ الرَّبَّ كُلُّ الأَرْضِ، وَمِنْهُ لِيَخَفْ كُلُّ سُكَّانِ الْمَسْكُونَةِ. ... لأَنَّهُ قَالَ فَكَانَ. هُوَ أَمَرَ فَصَارَ» (المزمور ٣٣: ٦، ٨، ٩)

هكذا أبتدأ الخلق. سمى الله النور نهاراً والظلمة ليلاً. وبحسب ما يقوله الكتاب المقدَّس، فقد اكتمل بذلك اليوم الأوَّل لعملية الخلق.

قديم .. لكنَّه صحيح!

قبل بضعة قرون، كان الاعتقاد السائد هو أنَّ الأرض مُنبسطة أو مُسطَّحة! لكنَّ هذا الفكر لم ينبُع في الأصل من الكتاب المقدَّس. بل إنَّ الكتاب المقدَّس يُشير إلى كُرويَّة الأرض حيث يقول عن الله بأنه:

«الْجَالِسُ عَلَى كُرَةِ الأَرْضِ ...» (إشعياء ٤٠: ٢٢)

وقد كان بعض القُدماء يقولون إنَّ الأرض تقوم على أساسات متينة، أو إنَّ إلهاً أُسطورياً يحملها. وقد كتب النبيُّ أيُّوب إنَّ الله:

«... يُعَلِّقُ الأَرْضَ عَلَى لاَ شَيْءٍ» (أيُّوب ٢٦: ٧)

في القرن الثاني للميلاد، صَنَّف بطليموس ١٠٢٢ نجماً. وقد بقي هذا التصنيف مُستخدماً إلى أن قام جاليليو باختراع التلسكوب في القرن السابع عشر. ورغم أنَّ عدد النجوم التي يمكن للمرء أن يراها بالعين المُجرَّدة لا يزيد عن ٥٠٠٠ نجم، إلاَّ أنَّ الكتاب المقدَّس يقول في أولى صفحاته إنَّ نجوم السَّماء هي:

«... كَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ...» (تكوين ٢٢: ١٧)

ورغم أنَّ الاكتشافات العلميَّة تؤكِّد ما يقوله الكتاب المقدَّس عن التاريخ، والجغرافيا، والطبيعة؛ إلاَّ أنه لا يُمكن للعلم أن يُثبت أنَّ أيَّ كتاب هو كلمة الله. كما أنَّ العلم لا يستطيع أن يُثبت الحقائق الروحيَّة. وسوف نرى لاحقاً كيف أنَّ الكتاب المقدَّس يُثبت نفسه بنفسه بأنه كلمة الله الموحى بها.

كُليُّ الحُضور

لا يمكن للعقل البشري أن يستوعب جميع صفات الله بالطريقة نفسها! فقد نتمكَّن من فهم أنَّ الله كُليُّ القدرة، وأنه كُليُّ العِلم؛ لكننا قد لا نستوعب أنه كُليُّ الحضور؛ أي أنه موجود في كل الأمكنة في جميع الأوقات! رغم ذلك، فإنَّ الكتاب المقدَّس يؤكِّد مراراً وتكراراً أنَّ الله حاضر في كل مكان!

حينما تتوقف قليلاً وتتأمَّل في هذه الفكرة فسوف تجدها مُريحة ومُطمئنة. فإن كُنت أسافر بعيداً عن عائلتي، فأنا أريد أن أكون مُطمئناً أنَّ الله سيكون معهم؛ لكنِّي في الوقت نفسه أريده أن يكون معي أنا أيضاً. فأنا لا أريد أن أضطر للبحث عنه لمساعدتي في حال تعرُّضي لبعض المتاعب. فقد أكون بحاجة لمُساعدته .. على الفور! وبالطبع، فأنا أريد الشيء نفسه لعائلتي أيضاً.

من ناحية أخرى، قد يكون من المُرعب أن نعرف أنَّ الله موجود في كل مكان. فإن فعلت خطأً ما فهذا يعني أنني لن أتمكَّن من الاختباء منه!

في القرن العاشر قبل الميلاد، كتب النبيُّ داود الكلمات التالية بوحي من الله:

«أَيْنَ أَذْهَبُ مِنْ رُوحِكَ؟ وَمِنْ وَجْهِكَ أَيْنَ أَهْرُبُ؟ إِنْ صَعِدْتُ إِلَى السَّمَاوَاتِ فَأَنْتَ هُنَاكَ، وَإِنْ فَرَشْتُ فِي الْهَاوِيَةِ فَهَا أَنْتَ. إِنْ أَخَذْتُ جَنَاحَيِ الصُّبْحِ، وَسَكَنْتُ فِي أَقَاصِي الْبَحْرِ، فَهُنَاكَ أَيْضًا تَهْدِينِي يَدُكَ وَتُمْسِكُنِي يَمِينُكَ. فَقُلْتُ: إِنَّمَا الظُّلْمَةُ تَغْشَانِي. فَاللَّيْلُ يُضِيءُ حَوْلِي! الظُّلْمَةُ أَيْضًا لاَ تُظْلِمُ لَدَيْكَ، وَاللَّيْلُ مِثْلَ النَّهَارِ يُضِيءُ. كَالظُّلْمَةِ هكَذَا النُّورُ»

(المزمور ١٣٩: ٧-١٢)

لكن يجب علينا أن نُفرِّق بين فكرة وجود الله في كل الأمكنة في جميع الأوقات وبين فكرة «وحدة الوجود» التي تقول بأنَّ الله موجود في كل شيء، وأنَّ كل شيء هو الله. فعلى النقيض من ذلك، سوف نرى أنَّ الكتاب المقدَّس يُعلِّم أنَّ الله مُنفصل عن خليقته؛ فهو ليس جُزءاً منها. كما أنَّ الكتاب المقدس يُعرِّف الله بأنه «كيان» وليس قوَّة مُجرَّدة أو حقيقة مُتعالية.

«أَمَا عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَسْمَعْ؟ إِلهُ الدَّهْرِ الرَّبُّ خَالِقُ أَطْرَافِ الأَرْضِ لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَعْيَا. لَيْسَ عَنْ فَهْمِهِ فَحْصٌ»

(إشعياء ٤٠: ٢٨)

٢ . ورأى الله ذلك أنه حسن

هكذا قد بدأ الله بعمليَّة الخلق. فبينما كان جميع جُند السماء يُراقبون ما يجري، قام الله بخلق السماء والأرض؛ وبذلك، انتهي اليوم الأوَّل. وكان ما زال هناك خمسة أعمال عظيمة أخرى على وشك أن تكتمل في الأيَّام الخمسة التالية من عمليَّة الخلق.

«أَلاَ تَعْلَمُونَ؟ أَلاَ تَسْمَعُونَ؟ أَلَمْ تُخْبَرُوا مِنَ الْبَدَاءَةِ؟ أَلَمْ تَفْهَمُوا مِنْ أَسَاسَاتِ الأَرْضِ؟ الْجَالِسُ عَلَى كُرَةِ الأَرْضِ وَسُكَّانُهَا كَالْجُنْدُبِ. الَّذِي يَنْشُرُ السَّمَاوَاتِ كَسَرَادِقَ، وَيَبْسُطُهَا كَخَيْمَةٍ لِلسَّكَنِ»
(إشعياء ٤٠: ٢١، ٢٢)

يُشَبِّه الكتاب المقدَّس الأرض بخيمة. فهي مكان للسكن؛ بل لعلَّها تكون أفضل مسكن للإنسان في هذا الكون. لكن لكي يكون هذا المكان مُناسباً للسكن، هناك الكثير من الأعمال الإنشائيَّة الأخرى التي ينبغي القيام بها. وهنا نرى الملائكة صامتين فيما تُرفع الستارة عن اليوم الثاني لعمليَّة الخلق حيث يقوم الله بخلق «الجَلَد». لكن ما هو «الجَلَد؟»؟

اليوم الثاني

«وَقَالَ اللهُ: لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلاً بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ. فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ. وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا» (تكوين ١: ٦-٨)

حينما خلق الله العالم، كانت الأرض مُغطَّاة بالماء. وفي اليوم الثاني، نرى أوَّل إشارة إلى أنَّ العالم الذي خلقه الله في الأصل كان مُختلفاً عن العالم الذي نعرفه الآن. يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله أخذ بعض الماء ووضعه عالياً في السماوات. ورغم أنَّ بعض المُفسِّرين يقولون إنَّ هذا يُشير ببساطة إلى الغيوم، إلاَّ أنَّ البعض الآخر منهم يُنادي بوجود مظلَّة شفَّافة من بخار الماء تُحيط بالكرة الأرضية. وسواء كانت عبارة «المياه التي فوق الجَلَد» تُشير إلى وجود مثل هذه المظلَّة أو عدم وجودها، فإنَّ هناك دلائل تُشير إلى أنَّ المناخ آنذاك كان يختلف عن المناخ الذي نعرفه الآن. فيبدو أنَّ مناخ الأرض بأكملها كان استوائيًّا. فمن المعروف أنَّ الغلاف الجوي الذي يحتوي على نسبة أكبر من بُخار الماء يترك تأثيراً شبيهاً بتأثير البيت الزجاجي على مناخ الأرض. وسوف نتحدث لاحقاً عن الشيء الذي يُعتقد بأنه أدَّى إلى تغيير الأشياء وجعلها بهذه الصورة التي نعرفها عليها الآن. وعلى أيِّ حال، وحسب ما يقوله الكتاب المقدَّس فإنَّ الله خلق «جَلَداً»؛ وقد تكون هذه الكلمة مُرادفة لما يُعرف الآن بالغلاف الجويِّ.*

* ملحوظة: كلمة «جَلَد» هي كلمة مُرادفة لكلمة «فضاء»، ويُمكن أن تعني إمَّا الغلاف الجويِّ المُحيط بالأرض، أو الفضاء الخارجي.

اليوم الثالث

في بداية اليوم الثالث، كانت المياه التي تحت الجَلَد ما زالت تؤلِّف بحراً أو مُحيطاً هائلاً واحداً دون أيِّ أثر لأيِّ أرض جافَّة. ومَرَّة أخرى، قال الله:

«لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ الْيَابِسَةُ. وَكَانَ كَذلِكَ. وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَقَالَ اللهُ: لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجِنْسِهِ، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ. وَكَانَ كَذلِكَ.

فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا كَجِنْسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالِثًا» (تكوين ١: ٩-١٣)

يُمكن تقسيم اليوم الثالث إلى قسمين: يتحدَّث القسم الأوَّل من اليوم الثالث عن خلق اليابسة. فحينما غار قاع المحيط إلى أسفل مُشكِّلاً أحواضاً ضخمةً تتجمَّع فيها المياه، ظهرت اليابسة بصورة مُستقلَّة عن البحار والمُحيطات. أمَّا القسم الثاني من اليوم الثالث فيتحدَّث عن خلق النباتات والأشجار.

فمنذ البداية، كان الله يُهيِّئ العالم للسَّكَن. لهذا، فقد خلق الحياة النباتيَّة لكي توفِّر لنا احتياجاتنا الجسديَّة: طعاماً نأكله، وهواءً نقيًّا نستنشقه، وأخشاباً نستخدمها في بناء المنازل.

«لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: خَالِقُ السَّمَاوَاتِ هُوَ اللهُ. مُصَوِّرُ الأَرْضِ وَصَانِعُهَا. هُوَ قَرَّرَهَا. لَمْ يَخْلُقْهَا بَاطِلاً. لِلسَّكَنِ صَوَّرَهَا. أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ»

(إشعياء ٤٥: ١٨)

اليوم الرابع

في اليوم الأوَّل للخلق، رفع الله ستارة الظُلمة حينما خلق النور. وفي اليوم الرابع، خلق الله تلك الأشياء التي تُعطي نوراً:

«وَقَالَ اللهُ: لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينَ. وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ. وَكَانَ كَذلِكَ».

«فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ، وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ».

«وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا رَابِعًا»

(تكوين ١: ١٤-١٩)

إن كنا نتعجَّب من خلق الله للنور قبل الشمس، فيجب علينا أن نتذكَّر أنَّه من السهل على الله أن يخلق النور، ومن السهل عليه أن يخلق الكواكب المُنيرة أيضاً:

«... أَنَا الرَّبُّ صَانِعُ كُلِّ شَيْءٍ، نَاشِرُ السَّمَاوَاتِ وَحْدِي، بَاسِطُ الأَرْضَ. مَنْ مَعِي؟» (إشعياء ٤٤: ٢٤)

«صَنَعَ الْقَمَرَ لِلْمَوَاقِيتِ. الشَّمْسُ تَعْرِفُ مَغْرِبَهَا» (المزمور ١٠٤: ١٩)

النظام والترتيب

تؤكِّد الشمس، والقمر، والنجوم أنَّ خالق هذا الكون هو إله تنظيم وترتيب. فالنظام هو أساس هذا الكون الذي يسير بدقَّة مُتناهية ويحفظ المواقيت. فنحن نرسم خرائط المَدِّ لسنوات قادمة ونحن واثقون بأنها ستكون دقيقة. كما أننا نُطلق الأقمار الصناعيَّة ونحن على يقين بأنها ستتلاقى مع الكواكب البعيدة في لحظة مُحدَّدة وفقاً لبرمجتها!* وهكذا، فالأرض بأكملها تعتمد على انتظام شروق الشمس وغروبها. وبدون هذا النظام الذي وضعه الله مُسبقاً، فإن مصير الأشياء هو الفناء.

* ملحوظة: لقد استمر القمر الصناعي الأمريكي «جاليليو» – الذي أطلقته إدارة الفضاء والطيران الوطنية «ناسا» – في التحليق لست سنوات قبل أن يصل إلى كوكب المُشتري في الموعد المُحدَّد تماماً!

إنَّ النظام الملحوظ في الكون ناشئ عن قوانين فيزيائيَّة تضبُط جميع الأشياء. ويمكننا أن ندرس هذه القوانين من خلال العلوم المُختلفة مثل علم الفلك، وعلم الأحياء، وعلم الفيزياء، وعلم الكيمياء. وقد وضع الله هذه القوانين لكي تضبط الكون كله بدقَّة مُذهلة.

«هُوَ كَائِنٌ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهِ يَدُومُ كُلُّ شَيْءٍ.»

(كولوسي ١: ١٧ – التفسيرية)

نحن ننظر إلى هذه القوانين باعتبارها بديهيَّات أو مُسَلَّمات دون أن نُفكِّر في كيف سيكون العالم بدونها. لكن فَكِّر ما الذي يمكن أن يحدث لو أنَّ قانون الجاذبيَّة توقَّف عن العمل لثوانٍ معدودة كُلَّ بضعة أيام! فمن المؤكَّد أنَّ الفوضى والموت سيسودان في العالم كُلِّه. فسوف يكون ذلك أشبَه بإزالة جميع الإشارات الضوئيَّة، ولوحات الوقوف، وحدود السرعة من شوارع مُدننا. وهكذا، فإنَّ هذه القوانين موضوعة لقصدٍ ما، كما أنَّها تضبط كيفيَّة عمل الأشياء بنظام وترتيب.

«لَكَ النَّهَارُ، وَلَكَ أَيْضًا اللَّيْلُ. أَنْتَ هَيَّأْتَ النُّورَ وَالشَّمْسَ. أَنْتَ نَصَبْتَ كُلَّ تُخُومِ الأَرْضِ. الصَّيْفَ وَالشِّتَاءَ أَنْتَ خَلَقْتَهُمَا» (المزمور ٧٤: ١٦، ١٧)

نحن نتعامل مع هذه القوانين الطبيعيَّة باحترام كبير بدافع غريزتنا! فعلى سبيل المثال، فإننا نُبدي حرصاً شديداً حينما نسير فوق المنحدرات الصخريَّة السحيقة لأننا نعرف أنَّ تحدّي قانون الجاذبيَّة ستكون له عواقب وخيمة! وهكذا، فإنَّ وجود قوانين يعني وجود عواقب لمُخالفيها! لهذا، فإنَّ الحكمة تقتضي منَّا أن نتجنَّب العبث مع هذه القوانين بذات الطريقة التي نتجنَّب بها الأوبئة الخطرة!

ويجب أن تعلم يا صديقي أنَّ هذه القوانين – هذا النظام وهذا الترتيب – هو انعكاس لطبيعة الله. فالله هو إله ترتيب وتنظيم!

اليوم الخامس

في اليوم الخامس، خلق الله الأنواع المُختلفة والمُتنوِّعة من الحياة البحريَّة والطيور:

«وَقَالَ اللهُ: ‹لِتَفِضِ الْمِيَاهُ زَحَّافَاتٍ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ، وَلْيَطِرْ طَيْرٌ فَوْقَ الأَرْضِ عَلَى وَجْهِ جَلَدِ السَّمَاءِ›. فَخَلَقَ اللهُ التَّنَانِينَ الْعِظَامَ، وَكُلَّ ذَوَاتِ الأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الدَّبَّابَةِ الَّتِي فَاضَتْ بِهَا الْمِيَاهُ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلَّ طَائِرٍ ذِي جَنَاحٍ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَبَارَكَهَا اللهُ قَائِلاً: ‹أَثْمِرِي وَاكْثُرِي وَامْلإِي الْمِيَاهَ فِي الْبِحَارِ. وَلْيَكْثُرِ الطَّيْرُ عَلَى الأَرْضِ›. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا خَامِسًا» (تكوين ١: ٢٠-٢٣)

اليوم السادس

كان اليوم السادس هو ذروة عمليَّة الخلق التي قام بها الله. وقد بدأ الله ذلك اليوم بخلق الحيوانات البريَّة:

«وَقَالَ اللهُ: ‹لِتُخْرِجِ الأَرْضُ ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجِنْسِهَا: بَهَائِمَ، وَدَبَّابَاتٍ، وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا›. وَكَانَ كَذلِكَ. فَعَمِلَ اللهُ وُحُوشَ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَالْبَهَائِمَ كَأَجْنَاسِهَا، وَجَمِيعَ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ» (تكوين ١: ٢٤، ٢٥)

الأنواع

نقرأ في اليوم الثالث أنَّ الله أمَرَ الشجر أن «يَعْمَلَ ثَمَراً كَجِنْسِهِ»؛ ونقرا في اليوم الخامس أنَّ الله أمَرَ الحيوانات البحريَّة والطيور أن تتناسل «كأجناسها»؛ ونقرأ في اليوم السادس أنَّ

الله أمَرَ الحيوانات البريَّة أن تتناسل «كأجناسها». فما المقصود بكلمة «كأجناسها» هنا؟ المقصود ببساطة هو أن تلد القطط قططاً، وأن تلد الكلاب كلاباً، وأن تلد الفيلة فيلةً. وبالتالي، لا حاجة للقلق من أننا إن زرعنا تُفَّاحاً فسوف نجني عنباً!

يمكن للمخلوقات أن تلد سُلالات مختلفة؛ [١] لكن من نفس نوعها الأحيائي. فعلى سبيل المثال، يمكنك أن تُربِّي سُلالات مُختلفة من الخيول وأن تحصل منها على سُلالة جديدة من الخيول؛ لكنها تبقى خيولاً في نهاية المطاف! فأنت لم تحصل على نوع جديد من الحيوانات! بل في حقيقة الأمر أنَّ كلاً من هذه الخيول يمتلك جينات وراثيَّة أقل من القطيع الهجين الذي تناسل منه. من جهة أخرى، بما أنَّ الأنواع ثابتة، فليس هناك ما يدعو المُزارع للخوف من أن تقوم خِراف المزرعة المجاورة بمداهمة مزرعته ليلاً والتزاوج مع المُهرة التي في الإسطبل. وهكذا، يمكننا أن نرى ثانيةً أنَّ الله وضع في هذا الكون قوانين تحفظ النظام.

كامل، وبلا عيب، ومُقدَّس

أثناء قيام الله بخلق هذا الكون، نقرأ في الكتاب المقدَّس الجُملة التالية التي تتكرَّر عِدَّة مَرَّات:

«... وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ» (تكوين ١: ٢٥)

من المؤكَّد أنَّ هذه الجُملة القصيرة مُحمَّلة بالمعاني. فحينما خلق الله الأشياء، فقد قام بذلك بصورة حسنة للغاية:

«اَللهُ طَرِيقُهُ كَامِلٌ. قَوْلُ الرَّبِّ نَقِيٌّ ...» (المزمور ١٨: ٣٠)

لا يمكننا نحن البشر أن نقوم بالأشياء بطريقة كاملة وبلا أخطاء! فقد يكون ما نقوم به مقبولاً تماماً، لكنه لا يخلو من العيوب! أمَّا حينما قام الله بعمليَّة الخلق، فقد جعل كل الأشياء كاملةً وبلا عيب.

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله نفسه كامل وبلا عيب. ونحن نستخدم كلمات مثل «طاهر» أو «قُدّوس» أو «بار» لوصف بعض جوانب هذا الكمال.

«... قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ رَبُّ الْجُنُودِ ...» (إشعياء ٦: ٣)

«... وَيَتَقَدَّسُ الإِلهُ الْقُدُّوسُ بِالْبِرِّ» (إشعياء ٥: ١٦)

سوف نتعمَّق في معاني هذه الكلمات أكثر فأكثر كُلَّما قطعنا شوطاً أكبر في دراسة كلمة الله. أمَّا ما نحتاج لمعرفته في هذه المرحلة فهو أنَّ الكلمات «طاهر» و«قُدُّوس» و«بار» تُستخدم لوصف بعض جوانب طبيعة الله الكاملة.

ويجب علينا أن نُدرك أنَّنا مهما وصفنا قداسة الله فلن نوفيها حَقَّها الكامل؛ وهذا أمر يجب علينا أن نُبقيه في أذهاننا طوال دراستنا لهذا الموضوع. كما أنَّ إدراكنا لبِرَّ الله هو أمر أساسي وجوهري يُساعدنا على أن نفهم بوضوح ما أعلنه الله للبشر. وحيث أنَّ هذا الأمر يُعتبر جزءاً لا يتجزَّأ من الأُحجية، فيجب علينا أن نتذكره على الدوام أثناء قراءتنا لهذا الكتاب.

علاوة على ذلك، فإنَّ الكمال هو من صفات الله أيضاً؛ فهو جانب آخر من عَظَمته! وحيث أنه كامل، فلا يمكنه إلاَّ أن يخلق خليقةً كاملةً. لقد تغيَّرت الخليقة كما سنرى لاحقاً؛ لكنها

في بادئ الأمر كانت حسنة جدًّا. فقد قال الله إنها كانت حسنة وكاملة!

الله يهتَمّ

كان بإمكان الله أن يخلق جميع النباتات والحيوانات باللَّونين الأبيض والأسود؛ لكنه اختار أن يجعل كل شيء مُلوَّناً بألوان عديدة ومُتنوِّعة. وفي الحقيقة أنَّ الله لم يخلق الألوان فحسب؛ بل وهبنا أيضاً عيوناً قادرةً على رؤية هذه الألوان والتمتُّع بها!

كذلك، فقد جَعَل الله لكل صنف من أصناف الطعام مذاقاً خاصًّاً ينفرد به. لكنه لم يخلق النكهات المُتنوِّعة فحسب؛ بل زوَّدنا أيضاً بحاسَّة الذوق لكي نتمتَّع بالأنواع المختلفة من الأطعمة.

ومن بين الأشياء الأخرى التي قام بها الله هو أنه جعل لكل نوع من الزهور عبيره وشذاه الخاص، وأنه وهب كل واحد مِنَّا أنفاً يمكنه أن يُميِّز الروائح المُختلفة وأن يتمتَّع بها.

كذلك، فقد كان الله قادراً على حَصر الحياة النباتيَّة ببضعة أنواع فقط. وفي الحقيقة أنَّ بعض الأصناف النباتيَّة قادرة على توفير حاجتنا من الطعام. لكن رغم ذلك فإنَّنا نرى تنوُّعاً هائلاً. لهذا، من الواضح تماماً أنَّ الله يهتم بنا كثيراً حيث يقول الكتاب المقدَّس

«... يَمْنَحُنَا كُلَّ شَيْءٍ بِغِنًى لِلتَّمَتُّعِ» (١ تيموثاوس ٦: ١٧)

وهكذا، فإنَّ الله لا يمتلك القدرة الكاملة على التنويع فحسب؛ بل إنَّ قُدرته العجيبة هذه ممزوجة بمحبَّته العجيبة لنا واهتمامه العجيب بنا. لهذا، فإنَّ الله عظيم، وقد أظهر لنا نفسه من خلال أعماله العظيمة والرحيمة في هذا العالم الذي نعيش فيه.

وما زال الله يُبهِر البشر بخليقته! فقد أخفى الله الكثير عن أعين البشر لعِدَّة قرون وذلك بسبب عدم قدرتنا على رؤية تلك الأشياء أو فهمها. لكن بعد اختراع المجهر الإلكتروني، وأجهزة شَطر الذرَّة، والتلسكوبات الفلكيَّة، وغيرها من الوسائل التكنولوجيَّة، أصبح بإمكاننا أن نُلقي نظرة على تلك الجوانب الخفيَّة. والغريب في الأمر أنَّ العُلماء لم يشعروا بالملل بسبب كثرة الاكتشافات. فكُلَّما اكتشفنا المزيد اندهشنا أكثر وأدركنا أنَّ ما نعرفه ليس سوى القليل. رغم ذلك فإنَّ عجائب هذه الخليقة موجودة من حولنا على الدوام منذ أن قام هذا الإله العجيب بخلقها!

«عَظِيمٌ هُوَ الرَّبُّ وَحَمِيدٌ جِدًّا، وَلَيْسَ لِعَظَمَتِهِ اسْتِقْصَاءٌ» (المزمور ١٤٥: ٣)

بقيت هناك خطوة واحدة فقط قبل أن تغيب شمس اليوم السادس؛ أي قبل أن تكتمل خليقة الله! ... أجل، لقد بقي هناك خَلْق الرجل والمرأة!

٣ . الرَّجُل والمرأة

اليوم السادس (تتمَّة)

بدأ اليوم السادس بخلق الحيوانات. ثم فجأةً يتغيَّر مسار القصَّة بالكامل. فحتَّى ذلك الحين، كان الله يُهيِّئ الأرض للسكن. ولا بُدَّ أنَّ الملائكة كانت تتساءل بتعجب عن خِطَّة الله النهائيَّة! فهل ستكون الأرض مسكناً لهم؟ ورغم أنَّنا لا نعرف ما إذا كانت الملائكة قد استمرَّت بالتفكير بهذه الطريقة أم لا، إلاَّ أنَّ الشيء المؤكَّد هو أنَّ طريقة خلق الله للرجل أدهشت الملائكة كثيراً!

«وَقَالَ اللهُ: 'نَعْمَلُ* الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا* كَشَبَهِنَا*، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ'. فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ»

(تكوين ١: ٢٦، ٢٧)

* ملحوظة: رُبَّما تتساءل عن سبب تحدُّث الله هنا بصيغة الجَمع: «نَعْمَلُ ... صورَتِنا ... شَبَهِنا»! لهذا، سوف نتطرَّق إلى هذا الأمر في جزءٍ لاحقٍ من هذا الكتاب.

صورة الله

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله خَلَق الإنسان على صورته. ومن المؤكَّد أنَّ هذا لا يعني أننا صورة طبق الأصل عن الله. فما من أحد منَّا كُلِّيّ المعرفة، أو كُلِّيّ القوَّة، أو كُلِّيّ الحضور. كما أنَّ الكتاب المقدَّس لا يُعَلِّم أننا آلهة صَغيرة؛ بل يُعلِّم أنَّ الإنسان هو أشبه بمرآة تعكس صورة الشيء، لكنها ليست الشيء نفسه. وهكذا، يُمكننا القول إنَّ الإنسان يمتلك بعض الصفات المُشتركة مع الله.

لقد خلق الله الإنسان ووهبه **عقلاً**. ويمكننا القول إنَّ الله وهبنا مقداراً ضئيلاً من عقله؛ لهذا، فنحن نمتلك القدرة على الاستقصاء، والفهم، والابتكار – وهي جميعها قدرات يمتلكها الله لكن على نطاق أوسع بما لا يُقاس! ورغم أننا نمتلك عقلاً إلاَّ أنَّ معرفتنا ليست كاملة. بل في حقيقة الأمر أننا نولد بلا معرفة تقريباً حيث يتوجَّب علينا أن نتعلَّم كل شيء نحتاج لمعرفته.

كذلك، فقد وهب الله الإنسان **عواطف ومشاعر**. ورغم أنَّ كلمة «عواطف» أو «مشاعر» تنطوي على بعض المعاني السلبيَّة في بعض الأحيان، إلاَّ أنها تحمل معانٍ إيجابيَّة أيضاً. فالقدرة على الشعور أمر هام جداً لنا كبشر. فبدون هذه المشاعر، سوف تكون طريقة تجاوبك مع الآخرين أشبه بالرجُل الآلي! لكن على النقيض من الرجُل الآلي، فإنَّ الكتاب المقدَّس يُخبرنا بأنَّ الربَّ رحيم، ورؤوف، وأنه يشعر بالغضب حينما يرى الظُّلم. وما من شكٍّ أنه من المُرعب أن يكون الله بلا قلب، وبلا مشاعر، وبلا قُدرة على الشعور بالحُب أو إظهار العطف من نحونا نحن البشر. وهكذا، فقد وهبنا الله هذه المشاعر لأنه يمتلك مشاعر هو أيضاً.

كذلك، فقد أعطى الله الإنسان **إرادة** (أو مشيئة) حُرَّة. وغالباً ما ننظر إلى قدرة الإنسان على اتخاذ القرارات بنفسه على أنها شيء مُسلَّمٌ به؛ لكنَّها في حقيقة الأمر هِبَة من الله

للإنسان. فالقدرة على الاختيار تُعطي الإنسان تنوُّعاً يُتيح له التمتُّع بالحياة. فالبعض يُحب الأرز، والبعض الآخر يُحب البطاطس. وحينما يعطش الإنسان فبإمكانه أن يتناول الماء، أو الحليب، أو الشاي، أو عصير التفاح، أو عصير البرتقال، أو غيره؛ فالخيارات عديدة وبلا حُدود!

إنَّ قُدرتنا على الاختيار تجعلنا مُنفصلين عن عالم الرجُل الآلي الذي لا يستطيع أن يتَّخذ أيَّة قرارات مُستقلَّة. فالرجُل الآلي لا يقوم إلاَّ بالأشياء التي تمَّت برمجته عليها. أمَّا الإنسان فيتمتَّع بإرادة حُرَّة تُتيح له أن يتبع الله – لا كرجُلٍ آلي؛ بل كشخص يُدرك ويفهم أنَّ الله يهتم به وأنه يُريد له الأفضل.

إنَّ **العقل، والعاطفة، والإرادة** هي صفات يمتلكها الإنسان لكونه مخلوقاً على صورة الله. وهناك جوانب أخرى يمكننا أن نُشير إليها؛ لكنَّنا نُفضِّل مُتابعة قصَّتنا حيث يقول الكتاب المقدَّس:

«وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً»
(تكوين ٢: ٧)

غالباً ما تقترن عبارة «نَسَمةَ حَياة» بالروح أو بالجانب غير المادي من الإنسان. وهذا جانب آخر من صورة الله لأنَّ الله روح أيضاً. وكما أشرنا سابقاً، لا يمكن للإنسان أن يرى الأرواح لأنها لا تمتلك أجساداً ماديَّة. لكن في حالة الإنسان، اختار الله أن يُعطيه هيكلاً مادياً مؤلفاً من لحم وعظم لكي تسكن فيه روحه. وفي الحقيقة أنَّ هذا المسكن مخلوق من تُراب الأرض. وحالما خَلق اللّه جسم الإنسان، كان كل شيء كاملاً، لكنه كان جسداً ميِّتاً لا حياة فيه. ولم يُصبح ذلك الجسد حيَّاً إلا حينما نفخ الله في أنف الإنسان نَسَمة حياة. وهكذا، فالله هو الوحيد الذي يستطيع أن يهب الحياة. فما من إنسانٍ أو ملاك يستطيع ذلك على الإطلاق. ومَرَّةً أخرى نرى أنَّ الله يتميَّز عن كُلِّ ما عَداه؛ فهو أعظم الكُلِّ!

مُعينٌ نَظيره

كان اسم أوَّل إنسان خلقه الله هو «آدم» والذي يعني «رَجُل». وبعد ذلك، خلق الله المرأة:

«وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ» (تكوين ٢: ١٨)

«فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. ... وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ» (تكوين ٢: ٢١، ٢٢، ٢٥)

أثارت هذه الآيات الأخيرة جدلاً ساخناً بين المُفسِّرين والنُقَّاد. فقد رأى البعض أنَّ الله خلق المرأة كمواطنة من الدرجة الثانية. لكنَّ الأمر ليس كذلك. فقد أخذ الله ضلعاً من صدر الرجل وخلق المرأة منه لكي تكون رفيقةً له وقريبةً من قلبه؛ ولم يخلقها من قدمه لئلاَّ يدوسها! وقد أطلق آدم على زوجته اسم «حَوَّاء» والذي يعني «واهبة الحياة».

الجنَّة الكاملة

«وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ ...»

(تكوين ٢: ٨-٩)

لم تكُن هناك بساتين أو حدائق حيوان تُضاهي جَنَّة عَدْن هذه. فقد كانت جَنَّةً كاملةً ورائعةً بكل معنى الكلمة حيث كانت أوراقها خضراء يانعة، ومياهها صافية ولامعة وتمتلئ بشَتَّى أصناف الأسماك، وكانت هناك أنواع كثيرة جداً من الحيوانات، وكان جمالها يفوق الوصف! إلى جانب ذلك، كان الطقس مُختلفاً أيضاً حيث تقول كلمة الرب:

«كُلُّ شَجَرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ فِي الأَرْضِ، وَكُلُّ عُشْبِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَنْبُتْ بَعْدُ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلهَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَمْطَرَ عَلَى الأَرْضِ، وَلاَ كَانَ إِنْسَانٌ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ. ثُمَّ كَانَ ضَبَابٌ يَطْلَعُ مِنَ الأَرْضِ وَيَسْقِي كُلَّ وَجْهِ الأَرْضِ»

(تكوين ٢: ٥، ٦)

في الحقيقة أننا لا نملك صورة واضحة عن جَنَّة عَدْن هذه! لكن من المؤكَّد أنَّ الله لم يخلق هذه الجنَّة لكي يعمل فيها آدم وحوَّاء جاهدين من أجل البقاء. فقد كان كل ما يحتاجان إليه مُتاحاً ومُتوفراً بكثرة في هذه الجنَّة التي كانت مكاناً رائعاً وهانئاً للعيش!

الخالق – المالك

لم يسأل الله آدم وحوَّاء عمَّا إذا كانا يرغبان في العيش في جَنَّة عَدْن أم لا؛ بل إنه كان يعرف ما هو الأفضل لهما. ومن المؤكَّد أنَّ الله يستطيع أن يتصرَّف دون أن يستشير أحداً لأنه هو خالق كل شيء ومالك كل شيء في هذا الكون (في الفصل السابق سردنا مثلاً عن أن صانع المجداف هو أيضاً مالكه):

«لَكَ يَا رَبُّ الْعَظَمَةُ وَالْجَبَرُوتُ وَالْجَلاَلُ وَالْبَهَاءُ وَالْمَجْدُ، لأَنَّ لَكَ كُلَّ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. لَكَ يَا رَبُّ الْمُلْكُ، وَقَدِ ارْتَفَعْتَ رَأْسًا عَلَى الْجَمِيعِ»

(١ أخبار ٢٩: ١١)

«لِلرَّبِّ الأَرْضُ وَمِلْؤُهَا. الْمَسْكُونَةُ، وَكُلُّ السَّاكِنِينَ فِيهَا» (المزمور ٢٤: ١)

«اعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللهُ. هُوَ صَنَعَنَا، وَلَهُ نَحْنُ شَعْبُهُ وَغَنَمُ مَرْعَاهُ»

(المزمور ١٠٠: ٣)

وكما أنَّ الملائكة تخضع لله لأنه هو الذي خلقها، كذلك ينبغي على الإنسان أن يخضع لله هو الآخر لأنه خليقته! وكما أنَّ الله جعل الملائكة خادمةً له، فقد أعطى الإنسان أيضاً مسئوليَّة العناية بالأرض.

«وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا» (تكوين ٢: ١٥)

فترة الاختبار

رُغم أنَّ الله لم يستشر آدم وحوَّاء قبل أن يضعهما في جَنَّة عَدْن، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني أنهما لم يكونا مُخيَّرين. فقد خلق الله الإنسان وأعطاه إرادة حُرَّة؛ أي قُدرة على الاختيار. لكن فيما يتعلَّق ببعض جوانب الحياة – كالمحبَّة مثلاً – فإنَّ القدرة على الاختيار تُصبح عديمة المعنى إذا لم يكن أمام المرء بدائل. لهذا، فقد وضع الله أمام الإنسان خياراً بسيطاً يتعلَّق بشجرتين اثنتين:

«... وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ»

(تكوين ٢: ٩)

الشجرة الأولى المذكورة هنا هي شجرة الحياة التي إن أكل المرء منها فسوف يعيش إلى الأبد. وبالتالي، فما من مُشكلة أبداً في الأكل من هذه الشجرة!

أمَّا الشجرة الثانية فيأتي الحديث عنها مصحوباً بتحذير! إنها شجرة معرفة الخير والشر. وقد كان آدم وحوَّاء يعرفان عن الخير؛ أمَّا الشر فكان غريباً عليهما. فقد خلقهما الله كاملين، وكانا خاليين من أي عيوب أو خطايا. فقد كان كل ما يعرفانه هو صلاح الله. ويقول الكتاب المقدَّس إنه إن أكل آدم وحوَّاء من ثمر هذه الشجرة فلن يعرفا الخير فحسب؛ بل وسيعرفان الشر أيضاً:

«وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً: مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتاً تَمُوتُ» (تكوين ٢: ١٦، ١٧)

لقد رأينا في السابق أنَّ تجاهُل أحد القوانين التي وضعها الله في الطبيعة (مثل قانون الجاذبيَّة) له محاذيره وعواقبه. وينطبق هذا المبدأ خرق القانون له عواقب وخيمة على جميع شرائع الله ووصاياه. وفي هذه الحالة، أعطى الله الإنسان وصيَّة واحدة فقط: «لا تأكُل من ثمر تلك الشجرة». وقد أوضح الله لآدم وحوَّاء عاقبة تعدِّيهما على وصيَّته هذه قائلاً بأنهما سيموتان! وسوف نتحدَّث عن موضوع الموت لاحقاً.

كانت هذه الشجرة هي التي جعلت الإنسان مُميَّزاً عن سائر المخلوقات. فالإنسان يتمتَّع بإرادة حُرَّة في أن يأكل أو أن لا يأكل، وفي أن يُطيع أو أن لا يُطيع! وبما أنَّ آدم وحوَّاء قد حصلا على هذا الامتياز، فهذا يعني أنهما لم يكونا رَجُلاً وامرأةً آليَّين يتصرَّفان بالطريقة التي تمَّت برمجتهما عليها. فهناك فرق كبير بين الشخص المُبرمج للقيام بشيء ما أو الذي يُطيعك رُغماً عنه، وبين الشخص الذي يفعل ذلك طوعاً واختياراً. فالقدرة على الاختيار هي التي تُضفي على كلمة «يُطيع» معنىً وعُمقاً، وهي التي تجعل العلاقات حقيقيَّة.

لم يكن هذا القيد الوحيد على آدم وحوَّاء يُمثِّل أيَّ صعوبة على الإطلاق! فالموقف لم يكن مثلما نراه في بعض لوحات الرسَّامين حيث يجلس آدم وحوَّاء تحت شجرتين وحيدتين تحملان القليل من الثمار التي ينبغي عليهما الاختيار من إحداها. بل في حقيقة الأمر أنَّه كانت هناك الكثير من الأشجار المُثمرة:

«وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ» (تكوين ٢: ٩)

مخلوقون لمجده

حينما أعطى الله آدم وحوَّاء حُريَّة الاختيار، فهو لم يكُن يعني بذلك أنه بإمكانهما أن يتمرَّدا عليه وأن يفعلا ما يحسُن في أعيُنهما. بل في حقيقة الأمر أنَّ الله خلق الإنسان لكي يُمجِّدُه ويُكرمه:

«أَنْتَ مُسْتَحِقٌّ أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ، لأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَهِيَ بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وَخُلِقَتْ» (سفر الرؤيا ٤: ١١)

حينما يكون الابن مُطيعاً لأبيه فإنه يُكرمه بذلك. وكذلك الحال بالنسبة للإنسان والله. فقد خلق الله الإنسان وأعطاه إرادةً حُرَّةً لكي يُمجِّده من خلالها عن طريق إطاعته الطوعيَّة له ولوصاياه. وبما أنَّ الله هو خالق هذا الكون، فهو يستحق كل المجد والكرامة التي يُمكن للإنسان أن يُقدِّمها له. ويجب أن نَعلم أنَّ مثل هذه الطاعة تؤدِّي إلى منافع وفوائد عظيمة. فالكتاب المقدَّس يقول إنه حينما يسير الإنسان بحسب خطَّة الله لحياته فسوف يجد سعادة غامرة، ويشعر بالرِضا وتحقيق الذات. وقد كان هذا الأمر ينطبق أيضاً على آدم وحوَّاء:

«وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى

سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ» (تكوين ١: ٢٨)

الإنسان – صديق الله

كان الله يفعل الأفضل لآدم وحوَّاء، كما أنه كان موجوداً لتسديد كل احتياجاتهما:

«وَقَالَ اللهُ: 'إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْلٍ يُبْزِرُ بِزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ فيه ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا. وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَامًا'. وَكَانَ كَذلِكَ» (تكوين ١: ٢٩، ٣٠)

ثُمَّ يتحدَّث الكتاب المقدَّس عن مجيء الله عند هبوب ريح النهار لكي يسير مع الإنسان. قد يكون من الصعب علينا جداً أن نستوعب هذه الفكرة. فلا يمكن لعقلنا أن يتخيَّل أنه يُمكن للإنسان أن يعيش في محضر الله. وهكذا، من الواضح أنَّ شيئاً ما قد تغيَّر! رغم ذلك، فإنَّ الكتاب المقدَّس واضح تماماً في أنَّ الله لم يكُن خالقاً بعيداً عن الإنسان؛ بل كان يتمتَّع بشَرِكَة حميمة مع آدم وحوَّاء. علاوة على ذلك، حيث أنَّ آدم وحوَّاء كانا بلا خطيَّة حتى ذلك الوقت فقد كانا يتمتَّعان بكمالٍ يُتيح لهما المكوث في محضر الله – فلا يمكن إلاَّ للأشخاص الكاملين [٢] أن يتواجدوا في محضر الله.

نحن نعرف أنَّ العائلة المثاليَّة هي تلك التي يُقدِّم فيها الأب والأم أعظم محبَّة وأفضل عناية لأبنائهما، في حين يُقدِّم الأبناء بدورهم الإكرام لوالديهم عن طريق محبتهم وطاعتهم لهما. وقد كانت هذه هي العلاقة التي تربط آدم وحواء بالله. فقد كان الله يُحبهما ويعتني بهما، وكانا هُما يُحبَّان الله ويُكرمانه عن طريق إطاعتهما له. وقد خلق الله الأشياء لتسير على هذا النحو.

اكتمال عمليَّة الخلق

«وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا سَادِسًا» (تكوين ١: ٣١)

غالباً ما نبدأ المشاريع الجديدة بهمَّة وحماسة كبيرتين. لكن بعد مرور بعض الوقت، فإننا نفقد اهتمامنا ونترك المشروع قبل اكتماله! لكنَّ الله ليس كذلك. فهو يُنجز الأعمال التي يبدأها. ورغم أنَّنا قد نُغيِّر آراءنا وخططنا، إلاَّ أنَّ الله لا يفعل ذلك:

«أَمَّا مَقَاصِدُ الرَّبِّ فَتَثبتُ إلى الأبد، وأفكارُ قلبه تدُومُ مَدَى الدُّهورِ» (المزمور ٣٣: ١١ – التفسيرية)

بخلق آدم وحوَّاء، اكتملت عمليَّة الخَلق. ويُخبرنا الكتاب المقدَّس أنَّ الله استراح في اليوم السابع – لا لأنَّه شعر بالتعب، بل لأنَّ خليقته قد اكتملت. فقد كان ذلك وقت فرحٍ بما صنع!